المحاضرة الخامسة: المراثي النبوية

كان ظهور الإسلام حدثا عظيما، غيَّر معالم الحياة العربية التي سادت في العصر الجاهلي، وذلك بما حمله من قيم إنسانية جديدة، وتم له جمع شتات القبائل المتناحرة وجعل منها خير أمة أخرجت للناس، ودأب على استئصال طبائع الجاهلية جاعلا مدار التفاضل بين الناس على التقوى والعمل الصالح.

وتنزلت آيات القرآن على الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام هاديا ومبشرا بدعوة الحق والإسلام بلغة أهل قريش، فبعث القرآن في قرائح الشعراء روحا جديدة، تجلت في بلاغة خطبائهم وشعرائهم.

لكن الأمة المسلمة بما فيهم الشعراء الذين خرجوا للدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد عبر –الشعراء– عن هذه الفاجعة الأليمة فكانت أشعارهم مرآة تعكس حبا عميقا نابعا من وحي العقيدة الإسلامية وإعجابا كبيرا بالشمائل المحمدية.[1]

وفي هذا المقام نقف عند المفهوم العام للرثاء كغرض شعري، وأهم المرثيات النبوية وخصائصها.

أولا: مفهوم غرض الرثاء

1-لغة:

الرثاء من الفعل الثلاثي «(رثى): فلان فلانا يرثيه رثيا ومرثية إذا بكاه بعد موته، قال: فإن مدحه بعد موته قيل رثاه يرثيه ترثية، ورثيت الميت: مدحته بعد الموت وبكيته، ورثوت الميت أيضا إذا بكيته وعددت محاسنه وكذلك إذا انضمت فيه شعرا، ورثت المرأة بعلها وامرأة رثاءة كثيرة الرثاء».[2]

---

[1] – أحمد حاجي، المراثي النبوية في صدر الإسلام، رسالة ماجستير في الأدب العربي القديم، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان–الجزائر، 1422هـ–2001–2002م، ص: 04.

[2] – محمد جلال الدين بن منظور، لسان العرب، طبعة جديدة منقحة، دار صادر، بيروت–لبنان، ط: 4، 2005م، مج: 6، مادة (رثا).

2-الرثاء في الإصلاح:

هو غرض شـعري قديم تداولته العرب منذ الجاهلية، ويعني البكاء على الفقيد والتفجع لموته وندبه وإظهار الفاجعة بالحزن والدموع وتعداد مآثره وفضائله.

والرثاء من باب المدح، لأنه مدح للميت وذكر محاســـنه وتعداد مناقب الممدوح ومحامده ومزاياه في حياته، فإن الرثاء بهذه الصـــورة يكون بعد موت الممدح، وهذا ما ذهب إليه ابن رشـيق، بقوله: «وليس بين الرثاء والمدح فرق، إلا أنه يخلط بالرثاء شـيء يدل على أن المقصـــود به ميت مثل: «كان» أو «عد منا به كيت وكيت» وما يشـــاكل هذا ليعلم أنه ميت».[3]

كما يذكر قدامة بن جعفر أنه: «ليس بين المرثية والمدحة فصـــل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك مثل: كان وتولى وقضى نحبه وما أشبه ذلك».[4]

فترى الشـاعر يحس بالوحدة والفراغ، وهو السـيد، فأصـبح يعاني من هذه السـيادة لأنه عدا سيدا بلا مسودين، ويرجع بذاكرته إلى سنين خلت كانوا فيها في غبطة من العيش ولكن الاسترسال بالذاكرة ينقطع فيرى قبالة عينيه قبورهم في بقيع الفرقد، إنهما القبطان اللذان حيراه -الموت والحياة- ثم يذكر شجاعتهم ولزمهم.[5]

وســـبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحســـرة، مخلوطا بالتلهف والأســـف والاستعظام، إن كان الميت ملكا أو رئيسا كبيرا.[6]

وفقيدنا في هذا المقام الرسول عليه الصلاة والسلام الشفيع والمشفع للأمة الإسلامية.

---

[3] – أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تق، وشر: صـلاح الدين الهواري، هدى عودة، دار ومكتبة الهلال، بيروت-لبنان، 2002م، (د.ط)، 231/2.

[4] – قدامة بن جعفر، نقد الشـــعر، تحق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1948، (د.ط)، ص: 118.

[5] – عبد الباقي الخزرجي، الشعر في يثرب قبل الإسلام، كتاب ناشرون، بيروت-لبنان، ط: 1، 2011، ص: 104.

[6] – ابن رشيق، العمدة، 231/2.

ويذكر ابن سلام في طبقاته قوله: «وقد حيرنا أصحاب المراثي طبقة بعد العشرة الطبقات».[7]

ثانيا: المراثي النبوية

هي كل «شعر قيل في وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حزنا عليه، أو ثناء، أو ترحما، أو غير ذلك من معاني الرثاء»[8]، لأن وفاته صلى الله عليه وسلم، خلفت حزنا عميقا على نفوس الصحابة والمسلمين أجمعين بعد تعودهم عليه بينهم، يوجههم ويحوطهم برعايته الشريفة، ما دفع الصحابة رضوان الله عليهم ينظم القصائد الطوال في رثائه عليه الصلاة والسلام، تاركا فراغا رهيبا لا يملؤه سوى الرضى بقضاء الله وقدره، وفي هذا يقول محمد الرابع الحسني الندوي: «لقد كانت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أعنف صدمة نفسية، وأشدها إيلاما للصحابة رضي الله عنهم فكان لها أن تؤثر وتنشء آثارا أليمة على نفوسهم».[9]

ثالثا: الخصائص الفنية في المراثي النبوية

حوت المراثي النبوية المعاني الآتية في المرثية النبوية.

1-البناء:

حفل النقاد العرب بالبيت الأول من بناء القصيدة مالم يحلفوا بغيره من أجزاء بنائها، فهو أول ما يطرق الأسماع منها، وهو زمامها الذي يسوقها إلى وجهتها، وهو الباب الذي يدل على أرجائها.

أ-حسن الابتداء: لقد جعلوا من علامات حسن الابتداء أن لا يخالف المطلع مقياسا من مقاييس اللغة، وألا يكون باردا، وأن يكون دالا على ما بنيت القصيدة عليه، فإذا كان نادرا أسيرا مع ذلك بلغ براعة الاستهلال.

---

[7] – محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، 203/1.

[8] – محمد شمس عقاب، المراثي النبوية في أشعار الصحابة توثيق ودراسة، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، ط:1، 1435هـ-2013م، ص: 20.

[9] – محمد الرابع الحسن الندوي، الأدب الإسلامي، وصلته بالحياة مع نماذج من صدر الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، 1985م-1405هـ، ص ص: 44-45.

كما لم يؤثر في مطالع المراثي النبوية ما يعاب، وإن عددا منها كان حســن الابتداء، وربما جاوز بعضـهما فاستهل استهلالا ساحرا أخاذا[10]، وكان شعر المراثي يذهبون في أوائل قصائدهم مذاهب شتى، فمن الصحابة من بغته الحزن وطغى على قلبه، فلم يجد مفتتحا خيرا من ذكر نبأ البلاء الذي ألم به من ذلك قول عبد الله ابن سلمة:

إن فقد النبي صرعنا اليــــ م، فدته الأسماع والأبصار

وقول عمة النبي صفية بنت عبد المطلب:

آب ليلى علي بالتسهاد وجفا الجنب غير وطء الوساد.

وكل ما ذكر في هذه المطالع مدخل يراد به التنبيه إلى غرض القصـــيدة، والإســـراع بالقارئ إليها من غير إبطاء بمقدمة طللية، أو مراوغة بغزل أو نحوه، وهي كلها جمل خبرية نلمس منها بعد هؤلاء الشعراء عن إلهاب العواطف بالأساليب الإنشائية، فهي ملتهبة أصـلا، وقلة حرصهم على توكيد أخبار حزنهم.[11]

كما افتتح بعض الشعراء قصائدهم بالنداء، نداء ابنة الفقيد، كقول سالم الخطفاني:

أفاطمة، بكي ولا تسأمي لصبحك ما طلع الكوكب

أو نداء العين لتذراف الدمع، والإسعاد على الحزن، كقول صفية بين عبد المطلب:

عين جودي بدمعة وسهود واندبي خير هالك مفقود

والافتتاح بالقسم توكيدا على حرفة الفقد لفراق الحبيب[12]، كقول حسان بن ثابت.[13]

آليت حلفة بر غير ذي دخل مني ألية بر غير إفناء

ب-التشويق وتهيئة السامع: بتأخير ذكر الوفاة عن مستهل القصيدة، كقول مسروق بن ذى الحارث الهمذاني: [14]

---

[10] – محمد شمس عقاب، المراثي النبوية، ص: 373.

[11] – محمد شمس عقاب، المراثي النبوية، ص: 377.

[12] – المرجع نفسه، ص: 375.

[13] – ديوان حسان بن ثابت، 131/1-132.

[14] –

قلت والدمع كالجمان على النحـ ـــــر وقد لاح في السماء العيوق

كل أمر وإن تعاظمني الصبـــ ـــــر عليه سوى النبي دقيـــــق

ففي المطلع نرى الدموع منحدرة صـافية صـفاء سـرسـرة صـاحبها، حارة حرارة صـدره الكليم، وقد قيل: إن «نظم اللســان في حقيقته نظم ما كان نقيا نقاء هذه الخواطر الدافقة في القلوب، متلاحقا تلاحق الأفكار الملتهبة في الرؤوس، متجانسا تجانس الأنباض المهتاجة في الصدور، سخيا خصبا سخاء وخصوبة هذه النفوس، لأن كلام كل منا صحيفة لبه».[15]

ج-حســن الاختتام: يقول ابن رشــيق: «لقد عرض حرص الشــعراء أن يكون البيت الأخير محكما لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسـن منه، وإذا كان أول الشـعر مفتاحا له وجب أن يكون آخره قفلا عليه»[16]، فمن الصــحابة رضــوان الله عليهم من ختم بالحكمة، كقول عمرو بن العاص:

واعلم بأن لكل ساع سعيه هذا-لعمر أبيك- أمر جامع

وهو ختام مواقف لرسـالة قصـيدته التي فحواها: إن لم تؤدوا ما أوجبت الرسـول الكريم فقد جنيتم على أنفسكم، لأننا لن نضيع حق الرسول صلى الله عليه وسلم حتى بعد مماته.[17]

ومن ختامهم الحســن قول ابن النعمان العتكي يشـد من أزر عمرو بن العاص عامل الرسول صلى الله عليه وسلم، ويومنه:

إن يستقيموا كنت أول راكب أو يرجعوا فلك الخصال الأربع

حق الأمير، وذمة يمنيـــة ومهابة، وإتـــاوة لا ترفـــع

وحســنه راجع إلى ما فيه من التعزز وحســن التقســيم، ومثل هذا الختام يعلق في الخواطر لحميد معناه، وحلاوة جرسه.

ومن الختام الجيد قول عمور بن سالم:

---

[15] – محمد محمد أبو موسى، دلالات التركيب، دراسة بلاغية، مكتبة وهبة، القاهرة-مصر، طبعة 1429هـ، ص: 272.

[16] – ابن رشيق، العمدة، 239/1.

[17] – محمد شمس عقاب، المراثي النبوية، ص: 377.

فو الله لا أنساك ما دمت ذاكرا لشيء، وما قبلت كفا وأصبعا

فإن فيه من معنى الوفاء الملائم لمقام الرثاء وفقد الحبيب، والتعبير عن ذلك صـراحا بالقسم، الذي يذكر بقسم الأحبة على بقاء العهد، وبالكناية عن طول الحزن وملازمته للشاعر في أحوال كلها.

غير أن الختام الذي ألح عليه الصـحابة ورجعوه في مراثيهم للنبي صـلى الله عليه وسلم الختام بالدعاء له والصلاة عليه، كأبي سفيان حين قطع رثاءه له بقوله: [18]

صلاة الله من رب رحيم عليه، لا تحول، ولا تزول

وبه قطعت صفية مراثي لها كثيرا، قولها:

رحمة الله والسلام عليه وجزاه المليك حسن الثواب.

ويرى ابن رشـيق أن الشـعراء قد كرهوا ختم القصـيدة بالدعاء، لأنه من عمل أهل الضـعف، إلا للملوك[19]، والرسـول صـلى الله عليه وسـلم في نفوس هؤلاء الشـعراء أعز وأرفع من كل الملوك ولن يؤديه حقه –في نظرهم– إلا الله الغني البر الكريم، وليس لهم من عزاء في وفاة رسـوله إلا فضـل اله وجوده ورحمته، وما من رجاء لهم في هذا الموقف سـواه فكان قطع الرثاء بالدعاء غاية ابتغى الصحابة بقاءها في أسماع الناس وعلى ألسنتهم.[20]

2–اللغة في المرثية النبوية:

دارت في مراثي الصـحابة للنبي صـلى الله عليه وسـلم مجموعات من الألفاظ، منها مجموعة ألفاظ الدموع والبكاء، وقد وقعت في بعض أبيات الشـعراء الذين رثوا الرسـول صـلى الله عليه وسلم منها قولهم[21]: «وأسعدني البكاء (أبو سفيان).

– وماء عيوننا جار (ابن النعمان العتكي).

---

[18] – المرجع نفسه، ص: 378.

[19] – ابن رشيق، العمدة، 241/1.

[20] – محمد شمس عقاب، المراثي النبوية، ص: 380.

[21] – المرجع نفسه، ص: 388.

- وبكت عليه الأرض، وبكته آفاق السماء (عبد الحارث).
- لا أبكي على هلك هالك، ولكنين باك عليك (عبد الله بن أنيس).
- بكت الأرض والسماء عليه، وبكاه خليله جبريل، وأجرت دمع عين فللجفون هموم (مرّان).
- بكت الأرض والسماء على النور (عامر بن الطفيل).
- فيا عين جودي بالدموع السواجم (صفية بنت عبد المطلب)».

والتفسير لكثرة هذه الألفاظ أنها مرآة انعكست عليها مشاعر التفجع الشديد، والألم، وهي على كثرتها ملائمة لكبير مقام الفقيد صلى الله عليه وسلم حين لم يجد الصحابة من حيلة إلا البكاء والدمع، والبكاء حيلة إنسانية فطرية عامة، لا يكاد يفارق بشرا صادقا في حزنه.[22]

3-توظيف المعاني الإسلامية في المراثي النبوية:

إن المتتبع للمراثي النبوية يجدها مليئة بالمعاني الإسلامية وبالألفاظ القرآنية، وسنذكر أمثلة:[23]

من تلك المعاني قول أبي الهيثم بن التليهان:

ثلاثة أصناف من الناس كلهم يروح علينا بالشّنان ويغتدي

مقتبسة معاني هذا البيت من قوله تعالى: ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ﴾.[24]

كما يذكر الشاعر عبد الحارث بن أنس في مرثيته قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾[25]، حيث يقول:

---

[22] – محمد شمس عقاب، المراثي النبوية، ص: 288.

[23] – المرجع نفسه، ص: 420.

[24] – سورة المائدة، الآية 08.

[25] – سورة لقمان، الآية 18.

بنجران نعطي من سعى صدقاتنا موفرة، ما في الخدود لها صعر

ويأتي تشبيه الرسول صلى الله عليه وسلم في القرآن بالنور في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾[26]، فيثبت في خيال صفية عمّيه، إذ تقول:

قد كنت بدرا ونورا يستضاء به عليه تنزل من ذي العزة الكتب

فكأنما تعمدت ترتيب بيتها كترتيب الآية من وصف النبي بالنور، ثم ذكر الكتب المنزلة من الله.

وتذكر صفية في معرض آخر تحييه عليه الصلاة والسلام، في قولها:

عليك من الله السلام تحية وأدخلت جنات من العدن راضيا

كما حياه الله تعلى في قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.[27]

4-الصورة في المرثية النبوية:

دأب الصحابة في المراثي النبوية على رسم صور كبيرة بعينها، ذات خطوط بارزة ظاهرة، ظللت لوحة المراثي من ورائها بظلال من عواطف شتى كانت تعتلج في صدور أولئك الملأ من الناس بعد وفاة النبي صلى لله عليه وسلم.

وهناك من الشعراء من صور ما اعتراه من الهم والبؤس بصور مختلفة منها عمته صفية التي أحست كأن المكاوي أوقدت في فؤادها يوم مات محمد صلى الله عليه وسلم، قولها:[28]

كأن على قلبي بذكر محمد وما خفت من بعد النبي المكاويا

---

[26] – سورة المائدة، الآية 15.

[27] – سورة الأحزاب، الآية 56.

[28] – محمد شمس عقاب، المراثي النبوية، ص: 433.

كما تصـور ما أصـابها من السـهر والشـيب الذي غزى رأسـها بفقده عليه الصـلاة والسلام، قولها:[29]

فشيبتي وما شابت لدائـــي فأمسى الرأس مني كالعيسيب.*

فسمعي –لعمرك– من بعده ثقيل، وفي بعض نطقي لثــع.**

كما تصـور عمته صـفية حال الناس بعد الرسـول صـلى الله عليه وسـلم بالبيت الذي انقض وانهدم قولها:[30]

فقد هدنا فقد الرسول فأعولي بحزن طويل آخر الدهر دائم

لقد استوحى شعراء المراثي صورهم من كل ما يخلتج في نفسوهم من أحاسيس الحسرة والأسى والتحسر والفجيعة لفقد الرسول عليه الصلاة والسلام، فجات أشعارهم مترجمة للحالة النفسية التي مروا بها وعاشوها بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

5–الموسيقى والبحور الشعرية في المرثية النبوية:

تعتبر الموســيقى الشــعرية كالصــورة في الأهمية، فهو «ظاهرة طبيعية لتصــور العاطفة»[31]، والوزن هو: «أعظم أركان حد الشعر وأولاها به خصوصية»[32]، وإن أثر القافية «لا يقف عند حد النظام الموسـيقي الصـوفي، وإنما نجده وثيق الصـلة بالنظم الصـرفية والنحوية والأسلوبية، وحتى بحجم الشعر وكلماته».[33]

---

[29] – محمد شمس عقاب، المرجع السابق، ص: 434.

[*] – العيسيب: هو منب الشعر منه، وعسب الذنب منبته من الجلد والعظم، والعسب جريد النخل، ينظر: ابن منظور، لسان العرب، طبعة جديدة ومحققة، دار صادر، بيروت–لبنان، ط: 4، 2005، مج: 10، مادة (عسب).

[**] – لثع: اللعثة هي ضعف في الكلام، حيث يخطئ الشخص في التعبير عن حروف الصفير وتسبب عدم وضوح الكلام، ينظر: موسوعة ويكيبيديا.

[30] – المرجع السابق، ص: 436.

[31] – أحمد الشايب، أصول النقد الأدبي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط: 10، 1994م، ص: 229.

[32] – ابن رشيق، العمدة، 134/1.

[33] – صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، دار الشروق، القاهرة–مصر، ط: 02، (د.ت)، ص ص: 81–82.

وليست الموسيقى وزنا وقافية فقط، ولكنها إيقاع وجرس ألفاظ أيضا، والشعر استعانته بهذه الموسيقى الكلامية إنما يستعين بأقوى الطرق الإيحائية، لأن الموسيقى طريق السمو بالأرواح، والتعبير عما يعجز التعبير عنه، وليس الوزن بالوعاء الذي يسكب فيه ماء الشعر وكفى، بل هو عنصر فاعل «من عناصر هذا الماء، والشعر بكل يسر هو هذه الكأس كما تراها مترعة بمائها».[34]

وقد نظم الشعراء المراثي النبوية بالأوزان الطويلة التفاعيل كالكامل والخفيف والرمل والوافر والطويل والمتقارب والسريع والبسيط والرجز ومجزوء الخفيف.[35]

والبحور الطويلة في المرثية دليل على حرص الصحابة تحميل الأوزان من اشعر أقصى ما تطيق، على أن البحور جميعا قادرة على احتواء تجربة الشاعر إذا أحسن التأتي إليها.

وهذه السبيل –البحور الطويلة– ترجع إلى قدرة الشاعر وتمكنه من القول، وراجع إلى خفقات قبله، وتأجج عاطفته التي تلمي عليه من الأوزان ما يكون صادقا في التعبير عنها.

ولعناية العرب بالبيت الأول من الشعر زادوا فيه صوتا موسيقيا خاصا به هو التصريح، ولما كان في التصريح دلالة على قصد تجويد الشعر لم يأبه الصحابة في كل المراثي له، للنازلة الشديدة التي نزلت بهم، فأتى قليلا في مراثيهم.

والذي صرّعوا فهم إما شعراء من أهل صنعة الشعر يخبرون مآتية ومخارجه، وهؤلاء كعمرو بن سالم، وعبد الله بن أنيس، وكعب بن مالك، وأبي سفيان بن الحارث، وعمرو بن العاص، وصفية بنت عبد المطلب.[36]

رابعا: نموذج من رثاء الصحابي الشاعر حسان بن ثابت للرسول (ص)

---

[34] – محمد شمس عقاب، المراثي النبوية، ص: 465.

[35] – المرجع نفسه، ص: 466.

[36] – محمد شمس عقاب، المراثي النبوية، ص: 468.

استهل الشاعر حسان بن ثابت قصيدته المرثية بمقدمة طللية –على عادة العرب– في ذكر الرسول والديار والتشوق إلى معاهد الدعوة الإسلامية، إلا أنه يتنكب عن ذكر ذات الأصابع والجواء وديار بني الحساس، إلا "التشبيب بالراضي الحجازية والحضر اليثربية، أو في الشوق إلى حيرة هاتيك البلاد، أو في بث الأشجان، والتوجع من ألم البعاد[37]، وفي ذلك يقول:[38]

بطيبة رسم للرسول ومعهد ... منير وقد تعفو الرسوم وتهمد

ولا تنمحي الآيات من دار حرمة ... بها منبر الهادي الذي كان يصعد

وواضح آثار وباقي معالم ... وربع له فيه مصلى ومسجد

بها حجرات كان ينزل وسطها ... من الله نور يستضاء ويوقد

معارف* لم تطمس على العهد أيها ... أتاها البلى فالآي منها تجدد

يذكر الشاعر أماكن جديدة تبعق برائحة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وعن (طيبة، منبر، الهادي المسجد...)، وإذا كان الطلل في القصيدة الجاهلية يدرس ويمحي بتأثير عوامل الدهر، نلاحظ أن أطلال الشاعر في أبعادها الجديدة "لم تطمس" (ولا تنمحي الآيات من دار حرمة، بل لها من القوة والسر الإلهي ما تستطيع به الحياة والتجدد.

كما أن المنازل والديار التي مر منها الرسول صلى الله عليه وسلم تشرق بنور يعم أرجاءها ولا يفارقها مع مرور الزمن، كيف لا وهي متلألئة بأنوار المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وبهذه المقابلة التي عقدها الشاعر بين الأطلال القديمة والأطلال في صنيعتها الجديدة تأخذ بعدا جماليا متناسقا، حيث استحضرها الشاعر منذ أول بيت، وهو يصف

---

[37] – عبد الفتاح شهيد، الاشتغال الجمالي للمعنى الأخلاقي، دراسته في شعرية المدائح النبوية، دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع، عمان–الأردن، ط: 01، 2015م–1436هـ، ص: 88.

[38] – ديوان حسان بن ثابت، 455/1.

* – وفي رواية جاءت لفظة "معالمَ"

الأولى بأنها: «تعفو وتهمد» بينما الثانية فهي: «منيرة»، لأنها (معارف لم تطمس على العهد آيها) لا تنمحي.

وإذا كان الشـــاعر في نماذج الفحول الجاهلية يذرف الدموع على ديار المحبوبة، وهو يتذكر أيام الوصـال ومشبها بين الأطلال، فإن المحبوب في هذه القصـيدة هو الرسول صـلى الله عليه وسـلم، الممدوح الذي اخترق البناء الفني والجمالي للنص، وسـما به أسـلوب شـوق وحنين الممدوح وقيمته الكبيرة.

فبعد أن يذكر الشـاعر الأماكن التي حل بها يواصـل البكاء على فراقه (افتقاده)[39]، إذ يقول حسان في ذلك وكله شوق وحنين لزيارة قبل الرسول صلى الله عليه وسلم:[40]

أطالت وقوفا تذرف العين جهدها على طلل القبر الذي فيه أحمد
فبوركت يا قبر الرسول وبوركت بلاد ثوى فيها الرشيد المســـدد
تهيل عليه الترب أيد وأعيـــــن عليه، وقد غارت بذلك أسعـــد

ونجده في موضـع آخر يوظف القيم المتوارثة في القصـيدة العربية والتي كرسـها الدين الإسـلامي، في تسلسل جميل يدل على إدراك عميق لبنيات المدح النموذجية وتوجهات الدين الجديد، إذ يقول:[41]

لقد غيبوا حلما وعلـــما ورحمـــة عشية علوه الثرى لا يوســـــد
إمام لهم بهديهـــم الحق جاهـــدا معلم صدق إن يطيعوه يسعدوا
أعف وأوفى ذمـــــة بعـــد ذمـــة وأقرب منه نائلا لا ينكـــــــد
وأبذل منه للطـــــريق وتالـــــــد إذا ضن معطاء بما كان يتلد
وأكرم حيا في البيوت، إذا انتمى وأكرم جدا أبطحيا يســـــــود

[39] – عبد الفتاح شهيد، الاشتغال الجمالي، ص: 90.
[40] – الديوان، 455/1.
[41] – الديوان، 455/1.

كما يسأل حسان الله تعالى ويدعوه أن يفنى بجور الممدوح صلى الله عليه وسلم في الجنان قائلا:[42]

وما فقد الماضون مثل محمـــد ولا مثله وحتى القيامة يفقـــــد

وليس هواي نازعا عن ثنائـــه لعلي به في جنة الخلد أخلـــد

مع المصطفى أرجو بذاك جواره وفي نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد

فقد جمعت هذه القصـــيدة قوة وإجرائية الطلل الجاهلي، إلى تجدد وصـــفاء الأماكن الإسلامية، ووصف ألم الفراق إلى شدة الولع بالمحبوب الذي لم يكن غير الرسول صلى الله عليه وسـلم، ثم أغدق عليه في المقطع المدحي صـفات الكرم والشـجاعة والعدل والعفة إلى نور النبوة، وهداية الإسـلام، وصـدق الرسـالة، فمنح الشـاعر للقصـيدة العربية حياة متجددة ونفسا آخر يتفق والتغييرات الجوهرية التي شهدتها البيئة العربية قبل الإسلام، لأن نجاح هذا النموذج الجديد كان رهينا بالتمسـك بالأصـول ثم تطويرها فيما بعد، والتجديد من داخلها بما يوافق الأخلاق الجديدة فأضـــاف إلى قوة البناء الفني للقصـــيدة الجاهلية صـــدق الشـــعور الإسلامي وسمو قيمته.

وهذا البناء الفني بمقطوعات حسـان بن ثابت تطرح ما علق من الصـفات الجاهلية، وتحتفظ بما لا يتعارض أو يتناقض مع القيم والتوجهات الأخلاقية الإسلامية، المرتبطة بقيمة وأخلاق وسـمو الرسـول صـلى الله عليه وسـلم سـواء كان رثاء–والرثاء في عرف الشـعراء المادحين هو بمثابة مدح له صـــلى الله عليه وســـلم– وتمثل لهذا التوجه بقصـــيدة لحســـان مطلعها:[43]

ما بال عيني لا تنام كأنـــــما كحلت مآقبها بكحل الأرمـــــد

جزعا على المهدي أصبح ثاويا ياخير من وطئ الحصى لا تبعد

---

[42] – الديوان، 457/1.

[43] – الديوان، 269/1.

فلخصوصية الحدث–يقول عبد الفتاح شهيد– يطرق الشاعر الغرض رأسا، ولا يضع بين يديه غزلا ولا نسيبا، بل يفتتح قصيدته بالبكاء وإظهار التفجع، ثم يعرض لظروف ولادته عليه الصلاة والسلام والنور الذي أضاء العالم كله بهذه الولادة[44]، إذ يقول:[45]

يا بكر آمنة المبارك ذكـــره ولدتك محصنة بسعد الأسعد

نورا أضاء على البرية كلها من يهد للنور المبارك يهتـد

ويختتم القصيدة بالصلاة والسلام على الرسول صلى الله عليه وسلم، ويذكر دعاء بأن يجمعه الله تعالى معه في جنة الخلد، مع لومه لليهود والنصـارى لما فرحوا بوفاته صـلى الله عليه وسلم وبمواراته الثرى، إذ يقول:[46]

يا رب فاجمعنا معا ونبيـــنا في جنة تبنى عيون الحســـد

في جنة الفردوس واكتبها لـنا يا ذا الجلال وذا العلا والسؤدد

يا ويح أنصار النبي ورهطـه بعد المغيب في سواء الملحـــد

صلى الإله ومن يحق بعرشه والطيبون على المبارك أحمـــد

فرحت نصارى يثرب ويهودها لما توارى في الضريح المجلـد

وبالرغم من أن شـعر حسـان بن ثابت قاله في معرض رثائه لفقد الرسـول صـلى الله عليه وسلم، ففي ظاهره رثاء لكنه يدخل ضـمن غرض المديح النبوي، فالرثاء للرسول صـلى الله عليه وسلم يدخل في باب المدائح النبوية.

[44] – عبد الفتاح شهيد، الاشتغال الجمالي، ص: 88.

[45] – الديوان، 269/1.

[46] – الديوان، 270/1.